ثلاثون سنة من قيام إسرائيل

١٩٤٨ ــ ١٩٧٨

د . عمر الخطيب *

اسرائيل : ــ دولة « العقيدة الرسولية » المزعومة :

لم يشهد تاريخ الافكار السياسية والاجتماعية عبر مراحله المختلفة تعلقا بفكرة ــ العقيدة الرسولية ــ مثلما شهده تاريخ الفكر الصهيوني ، فـ ــ جمهورية أفلاطون ــ و ــ المدينة الفاضلة ــ وفكرة ــ الدولة العالمية ــ كلها مجهودات فكرية خلاقة لكنها ابتليت بمثالية روادها . ولكن الفكر الصهيوني ربما يكون الوحيد الذي ينفرد بتقديم جملة من ــ المثل ــ و ــ النظم ــ الاجتماعية ــ الاخلاقية ليس الى مجتمع اليهود فحسب بل والى العالم بأسره من ورائهم . صحيح اننا سمعنا في العصور الحديثة دعوات مماثلة تبشيرية بهذا المعنى مثل ــ عبء الرجل الابيض ــ و ــ رسالة الامة الجرمانية ــ و ــ رسالة الامة السكسونية ــ ولكن هذه الدعوات كانت نتاج مناخ سياسي ــ اجتماعي معين نبتت في بيئة الفكر الكولونيالي ــ العنصري للقرن التاسع عشر ثم انتهت بزوال ذلك المناخ وتغير تلك البيئة . أما الفكر الصهيوني بطابعه ــ الرسولي ــ فانه يضع جذوره في اللاهوت اليهودي ، فهو اذن يسبق التاريخ كما انه سرمدي ، لذا فانه يحمل معنى القداسة والخلود . وهكذا فان العقيدة الرسولية في الفكر الصهيوني لا تعترف بالانقطاع بل بالاستمرارية لطالما ان الاحداث والافكار في التاريخ لا تحمل طابع الجدل فهي تسير في خط واحد ومحكومة بالحتميات ، وعندما ظهرت الصهيونية المعاصرة في صورة نقد لحل المسألة اليهودية على أساس التحرر المدني وحده فانها كانت محاولة لمواصلة الفرضيات التقليدية حول طبيعة تاريخ اليهود . ورسالتهم ، الامر الذي رفضه تلامذة التنوير من اليهود (١) . وكان التفاوت في التوجه عاما لم يفلت منه الصهيونيون ــ الاشتراكيون ــ ففي حين اعتبر ــ بورخوف ــ الصهيونية بمثابة الرد على احتياجات الشعب اليهودي الاقتصادية والثقافية وانها لذلك تمثل بعثا قوميا اجتماعيا معاصرا فان ــ ليفنبرغ ــ أثار ــ الشوق

---

* استاذ العلوم السياسية بالجامعة الاردنية

الى صهيون ــ والعودة الى فلسطين من أيام الانبياء العظام ليبني منه ايديولوجية ــ الاشتراكيين ــ الصهيونية (٢) . وفي كتابه عن ــ تاريخ الصهيونية ــ يقول ــ ناحوم سوكولوف ــ : .... يبدأ تاريخ اسرائيل بالصهيونية ، ويبين هذا التاريخ في الازمنة السحيقة طريق تحقيق الصهيونية .. فالخروج من مصر مثلا كان للجمع بين الهجرة والكولونيالية ... والعودة من بابل كان حدثا صهيونيا عظيما ــ ويقول اميل توما في نقده لفكرة الانبعاث اليهودي كما يطرحها الصهاينة بأن الانبياء مع أنهم تحدثوا عن جمع بقايا اليهود من الشتات من اربعة اطراف الارض ــ اشعيا ٢ ــ وعن غربلة بني اسرائيل من بين جميع الامم وانهاء سبي شعب اسرائيل وغرسهم في أرضهم فلا يقلعوا منها ابدا ــ عاموس ٩ ــ الا أن ذلك قد ارتبط عبر الاجيال بقدوم المسيح وحلول الاخرة . ويتابع توما قوله بأن الفرق كبير ، على أية حال ، بين الشوق الى صهيون أو فكرة المسيحية التي كانت ولا تزال تؤلف عقيدة من عقائد الايمان الديني في اليهودية مثلما تؤلف فكرة عودة المسيح عقيدة من عقائد الايمان الديني في المسيحية والاسلام وبين الصهيونية بوصفها ايديولوجية سياسية معاصرة نشأت في قرن محدد ونشطت في ظروف تاريخية محددة . ولا يغير في ذلك أن الصهيونية اقتبست هذا الشوق واقامت بناءها الايديولوجي على الدين اليهودي وجعلته جوهر القومية التي ارادت خلقها . هذا ما نراه بالفعل في كتابات اباء الفكر الصهيوني المعاصر المفعمة بالنرجسية والتسامي والمثالية التبشيرية . فيقول هرتزل في كتابه المعروف ــ الدولة اليهودية : ــ سوف يبعث الميكابيون من جديد ... وسوف نحيا اخيرا كرجال احرار على ترابنا الخاص ونموت بسلام في بيوتنا الخاصة ، سوف يتحرر العالم بحريتنا ويغتني بغنانا ويتعاظم بعظمتنا ، وكل ما نحاول تحقيقه هناك لصالحنا وخيرنا سوف يعود بالنفع الوفير لخير الانسانية جمعاء (٣) .

وهكذا ، عملت قيادة الحركة الصهيونية منذ البداية على اعادة توجيه ما يسميه المؤرخ ارنولد توينبي بـ ــ ملكة المحاكاة ــ صوب الاجداد باعتبارهم تجسيدا للتقليد الاجتماعي غير المتغير ، وصوب الشخصيات المبدعة التي تهوى قيادة رفاقها معها نحو أرض الميعاد . وهذا هو نفس المعنى الذي تتسمنه الميثولوجيا اليهودية في قيادة يشوع بن نون لبني اسرائيل عبر سيناء الى فلسطين ، ولقد ظلت هذه الامثولة حاضرة في اذهان اليهود بعد انهيار مملكتي يهودا والسامرة اثر الأسر البابلي لتتجسد في هذا العصر بعودة جديدة الى ــ المملكة الموحدة ــ لبني اسرائيل . وعن خلال استقرائنا للايديولوجية الصهيونية نستطيع أن نلحظ خطين متناقضين ولكن متوازيين في هذه الامثولة : ــ التضحية مرة ــ البطولة ــ فالعودة الاولى الى فلسطين كانت بعد معاناة

اليهود اثناء فترة التيه الطويلة في سيناء وما وجودهم في مصر الا وجودا مؤقتا وتجسدت البطولة انذاك في قدرة اليهود على تحقيق شخصيتهم السياسية ــ الدينية باقامة مملكتين لهم في فلسطين ، اما العودة الثانية فقد تمت بعد فترة طويلة من معاناة الدياسبورا من الارهاب النازي وما سبقه طوال حقب عديدة من التمييز والاضطهاد الاوروبي ضدهم ، والبطولة هنا تتمثل في اعادة بنـــاء دولة اسرائيلية موحدة . وهكذا تتبلور البطولة من خلال المعاناة والتضحية في الرؤيا الصهيونية . وهذا الفهم للتاريخ مفعم بالرؤيا الذاتية الموغلة في تصوفها ومثاليتها والتي تغفل عن عمد دور العوامل الموضوعية والمؤثرات الخارجية ، لتقدم نفسها على انها شيء فريد وريادي ، بل ورباني . وهي بهذا المعـــنى تسمح لنفسها بأن تسبق التاريخ وتتجاوزه فتصنعه برؤياها قبل ان يصنعها فيكون القصد . وعلى اية حال ، فان العودة الثانية الى فلسطين اختلفت في ظروفها وحيثياتها عن العودة الاولى .

ويقول الان تايلور في كتابه ــ العقل الصهيوني ــ (٤) انه عندما ولدت الصهيونية المعاصرة في القرن التاسع عشر ، فانها كانت تلتقي مع ما يسميه بـــ ــ مثل التلاحم القومي والعدالة الاجتماعية ــ في أوروبا ، اي : التطلع نحو العلم والتكنولوجيا ، نحو العمل الصناعي ، نحو المجهود الجسدي في العمل ، نحو نبل المبادرة نحو العمل اليدوي وطهارة العنف الثوري . ولكن العودة هذه المرة مشحونة بالمخاطر ، اذ ان فلسطين ليست ارضا بورا بل هي آهلة بسكانها العرب . ولا يغفل هرتزل عن هذه الحقيقة لانه يفترض ، على اية حال ، ان ــ العدو ــ موجود بصورة دائمة ،هكذا تعلم من تاريخ اليهودية القديم ومن تاريخ الدياسيورا المعاصر . ولذا فانه يقول : ــ ان التآخي العام بين النـــاس ليس حتى ولا حلم جميل . فالعدو شرط ضروري لارفع مجهودات الانسان واسماها . والخطة التي يعتمدها هرتزل لتوليد ــ الطاقة اليهودية ــ كما يقول ، من زخم القوى المعادية تكون بتحويل اليهود الى مطرقة والابقاء على سندان العالم ، بينما يوضع الاخرون ــ اي العـــرب ــ بـــين المطرقـــة والسندان ــ . ومن الجدير بالذكر ان الصهيوني ــ اسرائيل زانغويل ــ كان قد بادر في مطلع الحركة الصهيونية الى استنباط صيغة يهودية للتشبيه الذي اقتبسه هرتزل عن عبارة الفيلسوف الالماني غوته الشهيرة ــ اما ان نكـــون مطرقة او سندانا ــ فأصبحت على لسان زانغويل ــ اما ان نكون مكابيين او شـــهداء (٥) .

ويضع هرتزل برنامجا تربويا لتوجيه اليهود ليصبحوا رجالا احـــرارا واقوياء وعلى استعداد للتطوع في الخدمة وقت الحاجة . ويضع في مقدمـــة

المنهاج ــ الاناشيد الوطنية ، الكابيين ، التوراة ، المسرحيات البطولية ــ (٦) . كل ذلك ، كما يقول الدكتور اسعد رزوق ، من أجل اعداد اليهود الذين يوحد بينهم العداء للسامية عملا بمضمون نظرية ــ التنكر البيئي ــ للانتقال الى أرض جديدة والبقاء فيها ريثما تتحول ــ الزعانف ــ الظاهرة الى أرجل حقيقية من جديـــد (٧) . .

ولكننا نعتقد أن هرتزل ليس متواضعا الى هذا الحد . فهو في ــ الدولة اليهودية ــ يرتأي ما هو أبعد من ذلك باسم العقيدة الرسولية الصهيونية اذ يقول :ــ سوف نؤلف هناك جزءا من المتراس الاوروبي ضد آسيا ومركزا اماميا للمدنية بوجه البربرية ــ . وفي روايته ــ الارض القديمة . . الارض الجديدة ــ يبشر هرتزل العرب ، مع ذلك ، بأن مجيء اليهود الى فلســطين سيكون فيه خير للعرب وحياتهم الاجتماعية وتقدمهم . وفي الرواية صورة عرب فلسطين السعداء الباحثين عن ــ النعمة الجديدة ــ من اليهود لقاء تنازلهم لهم عن حقوقهـــم .

وبعد ، فان الكتابات التي تناولت الفكرة الصهيونية واسرائيل ، سواء ما كان منها بالعربية أو الاجنبية هي أكثر من أن تحصى . ولكننا بعد مرور ثلاثين سنة على قيـــام اسرائيل أردنا أن نركز على هذه الموضوعية التي تعتبر أبرز ما تتعلق به الفلسفة الصهيونية واسرائيل : موضوعية العقيدة الرسولية، كي نجيز لانفسنا بالتالي أن نطرح السؤال المشروع التالي :

أين هي ــ النعمة اليهودية ــ الجديدة التي بشر هرتزل العرب بها في فلسطين ؟ وما هي ثمار هذه العقيدة الرسولية التي تحملها اسرائيل للعالم ؟

اننا لا نجيب على ذلك بأكثر مما يجيب البروفسور الاسرائيلي المعروف ــ جورج تامارين ــ الذي اشتهر بعداءه للسياسة العنصـــرية والاستيطانية الاسرائيلية ، وذلك في كتابه عن ــ المعضلة الاسرائيلية ــ المنشور عام ١٩٧٣ :

ان هناك تناقضا يدمغ الحقيقة الاجتماعية والروحية لاسرائيل : التناقض بين ــ العقيدة الاسرائيلية : المثال الديمقراطي ، المساواة ، مجتمع التقدم والاستنارة ، وبين القوانين التيوقراطية العنصرية ، والبيئـــة الشوفـــينية والاجراءات التوتاليتارية . وهذا الصراع معكوس بين التيارات النزاعة نحو ــ جيتو ــ جغرافي وروحي ، وبين أولئك الذين يسعون لاقامة مجتمع حر ومفتوح . . ان حل هذه المشكلة سيقرر في نظري ليس فقط الطبيعة الاجتماعية ــ الثقافية للدولة ، ولكنه أيضا سيقرر مستقبلها السياسي (٨) .

اسرائيل : ثلاثـــة قرارات مهلكـــة

في تاريخها طوال ثلاثين سنة اتخذت القيادات الاســـرائيلية المتعاقبـــة سلسلة من اخطر القرارات المهلكة التي ظنت بأن فيها اسباب نجاتها وبقائها ، بمثل ما فيها من اسباب ايذاء العرب والاضرار بمصالحهم . ولكن هذه القرارات وان كانت تغذي بعض المطالب والاطماع الاسرائيلية على المدى المنظور ، فانها ستصيب اساس وجود اسرائيل ذاته في ـــ المقتل ـــ على المدى الاستراتيجي ـــ التاريخي . ويمكن تلخيص قراراتها المهلكة في ثلاث قرارات رئيسية :ـــ
الاول : التمييز العنصري ضد العرب

لقد تصادف ظهور عمالقة الحركة الصهيونية على المسرح الاوروبي ظهور ـــ الهوة ـــ الشهيرة بين انجازات الرجل الابيض والعجز المخيف لبقية البشرية. وادى ذلك لتغذية وهم تفوق الجنس الابيض . وكان ذلك اثر محاولة الباس العنصرية ثوبا علميا في القرن التاسع عشـــر بظهور مقولـــة ـــ الداروينيـــة الاجتماعية ـــ القائمة على فكرتي ـــ الصراع من اجل البقاء ـــ و ـــ بقـــاء الاصلح ـــ . وتبعا لذلك ظهر ـــ علم الوراثة ـــ او علم الصحة العرقية وذلك بهدف التحري عن ـــ نقاء العرق ـــ ووحدة السلالة والحيلولة دون تدنسها باختلاطها بدم او سلالة اخرى . ويحضرنا في هذا الصدد ان نقارن بين كلمات غولدا مائير حول تخوفها من ارتفاع نسبة الولادة بين السكان العرب وخطرها على ـــ الطبيعة اليهودية الخالصة ـــ لاسرائيل ، مع كلمات الكاتب الانجليزي العنصري ـــ غريك ـــ آنذاك عن السلتيين المنحلين والويلزين الذين كانوا يتزايدون بسرعة اكثر من تزايد السكسون العظماء ، وبالتالي ، اعطوا الفرصة للعرق الرديء بالغلبة نتيجة صفاته السيئة (٩) .

والحقيقة ان علم الاجناس قد استهوى موسس هس Moses Hess مؤلف كتاب ـــ روما والقدس ـــ واحد الرواد البارزين في الفكر الصهيوني . اذ بعد مزاوجة هذا العلم باليهودية ، توصل هس الى نظريتـــــه العرقيـــة الصهيونية ، فوجد ان الاختلافات بين الشعوب هي فطرية وموروثة وليست مكتسبة ، كما انها ابدية وليست زائلة . وهناك مدرستان عنصريتان دفعتـــا الى الامام عملية تبلور العنصرية الصهيونية . الاولى وهي مدرسة المؤرخين البروسيين بزعامة ـــ هنريخ فون تريشكه ـــ التي تركت اثـــرا كبـــيرا على الصهيونية من جانب ، وعلى الاشتراكية الوطنية الالمانية من جانب اخـــر ، واصبحت كتاباته بمثابة ارشادات سياسية للنازيين ، وحظيت بشعبية كبيرة في الجامعات الالمانية ، حيث كان الشبان اليهود يتلقون تعليمهم . أما الثانية فهي

مدرسة ــ الاصلاح الاستعماري ــ ومن ابرز وجوهها اللورد اشلي المعروف بنشاطه في الحركة الصهيونية . وتقوم على الايمان بقدرة الجنس الابيض ، واعتبار شعوب المستعمرات بمثابة اناس خاملون ومنحطون يقعون في أدنى مرتبات الشعوب .

وهكذا يذهب الكتاب الصهاينة العنصريون الى اتهام العرب بأنهم شعب رجعي مسؤول عن انحطاط فلسطين والشرق الاوسط برمته (١٠) . ان عقيدة التفوق العنصري لليهود التي تتسلح بالمقولات اللاهوتية مثل ــ شعب الله المختار ــ يغلفها ستار كثيف من الوهم بأن العرب يعيشون في ظل انكفاء حضاري كبير لا نهاية له . وينطوي هذا الموقف على رؤيا خطرة مفادها انه لطالما ان للشعب اليهودي في اسرائيل طاقات ابداعية مادية ومعنوية ، تتجاوز حدوده الاقليمية ، فان الارض العربية على اتساعها ، تمثل مجالا رحبا لتفجير تلك الطاقات . وفي هذا يكمن قدر هائل من التجاهل المتعجرف أو الجهل بانه لا زال أمام العرب دور عظيم في دفع مسيرة الحضارة الانسانية الى الامام .

يقول ــ أموري رينكور ــ مؤلف الكتاب المعروف ــ القياصرة القادمون ــ :

ــ زخرت اليونان القديمة وأوروبا الحديثة بفائض من الطاقة تعذر معه بقاؤهما منحصرتين داخل حدودهما الجغرافية ، وكان هناك حول هذين المجتمعين اليافعين ، رغم العشرين قرنا التي تفصلهما نفس الجهالة البربرية أو نفس الحزن الكئيب المنبعث من حضارات معمرة . ونظر اليونان الى البابليين والمصريين نظرة تماثل نظرة الاوروبيين في العصور المتأخرة ، الى المسلمين والهنود والصينيين : شعوب متدهورة ، بالغة التهذيب ضعيفة ، مجتمعات تعوزها القوى الخلاقة ، شعوبا همجية عديمة الثقافة تتوسل أن تتحضر . وذهل الرحالة اليونان بأمجاد بابل وضخامتها المحيرة ، وروع هيرودت أمام الاهرامات المهيبة في مصر ، كما راح الاوروبيون يحدقون النظر في القسطنطينية ودلهي وبكين ــ .

ترى ، هل يجرؤ قادة اسرائيل على ازالة الغشاوة عن أعينهم كي يحسنوا قراءة التاريخ ويستقرئوه ؟ اننا لا نعتقد ذلك . فعندما قال ديان ، وهو غير متدين ، ــ ان من يمتلك التوراة وشعب التوراة ينبغي له ان يمتلك أرض التوراة ــ سارع الحاخام الاسرائيلي نسيم لارسال برقية له ، هنأه فيها على ــ فهمه العميق للتوراة ــ .

واذا كان مصدر التفوق اليهودي يختلف من فئة صهيونية لاخرى ، أي اذا كان الهيا بالنسبة للمتدينين ، وذاتي النشأة بالنسبة للعلمانيين ، فان هـذا التفاوت ضمن اطار الالتقاء على نتيجة مشتركة ، هو الذي يفسر لنا الانسجام الحاصل بين الحاخام الاكبر والجنرال الاكبر في اسرائيل .

وهنا ننتقل الى زاوية أخرى من الموضوع ، وهي المتعلقة بمفهوم ـــ اليهودي الخالص ـــ . اذ يرى المنظرون الصهاينة في اندماج اليهـودي أو انصهاره في المجتمع الذي يقيم فيه خارج اسرائيل شكلا من أشكال ـــ الانسلاب ـــ عن هوية يهودية حقيقية خالصة مفترضة . فمثلا ، يرى بريز وكاتزنلسن في اليهودي المندمج شخصا سلبيا غير طبيعي . أما وايزمن فانه يرى بأن الاندماج هو وصمة عار لمن يختاره من اليهود (١١) .

هذا هو الاطار الفكري العام للعنصرية الصهيونية . ولكن ، ماذا عن الممارسات العملية ؟ انها في الحقيقة اكثر من أن تحصى . فهي بعد عام ١٩٤٨ ، تمثلت بجعل العرب يعيشون في ظل القوانين الدفاعية ، وبعد عام ١٩٦٧ ، تمثلت بالاستيلاء الكامل على اراضي فلسطين وانشاء المستوطنات واستغلال العمل الفلسطيني الرخيص ، ومصادرة الاملاك أو اتلافها ، وفرض العقوبات غير القانونية ، وتحويل الضفة والقطاع الى سوق رئيسـي للمنتوجـات ، والحيلولة دون نشوء صناعات وطنية ، بالاضافة الى عمليات تغيير المعـالم والمناهج . ان الكتاب الصادر عن ـــ اسرائيل شاهاك ـــ رئيس عصبة حقوق الانسان الاسرائيلية عام ١٩٧٥ بعنوان ـــ عنصرية دولة اسرائيل ـــ يكفي لان يزودنا بمئات الشواهد والامثلة بهذا الصدد وبأقلام اسرائيلية .

ثانيا : الشوفينية القومية

ان من خصائص كل حركة من الحركات القومية الحديثة ابتكار نظرتها المميزة للتاريخ بصورة عامة ، والى تاريخها بصورة خاصة وذلك بواسـطة تأويلها لاحداث الماضي بشكل يجعلها تصبغ وجود الامة التي تكون اما في طور التكوين أو تكونت حديثا ، بصبغة الوجود المستمر حتى ولو لم يكن لهذا الوجود أي أساس تاريخي سابق . وعليه فقد استخدمت الايديولوجية الصهيونيـة معطيات المراحل السابقة من تاريخ اليهود كبعض انتاجه الفكري والتنظيمـي والادبي والديني الاسطوري ، ودمجها في حينه بالمصالح الحالية ومعطيـات المرحلة التاريخية الراهنة وبتطلعاتها البعيدة وأهدافها المرحلية كي يتبلـور كل ذلك كأداة فعالة في تكوين الدولة القومية اليهودية . وقد اصطبغت هـذه المحاولة بصبغة صوفية غيبية استمدت حيويتها العاطفية من التشديد على ـــ نداء الارض ـــ و ـــ التراث الروحي والاخلاقي ـــ للشعب اليهودي (١٢) .

ومع أن الدلائل التاريخية تثبت أن قيام اسرائيل لم يكن بمثابة حركة تحرير وطنية على غرار حركات التحرر في العالم الثالث ، الا أن الكتاب الصهاينة لا يتواضعون الى حد اعتبار اسرائيل انتصارا لحركة تحرر وطني يهودي ، بل شيئا أسمى من ذلك لانها حركة شعب ــ يكاد يكون فريدا في تاريخ البشرية ــ كما يقول أحدهم . وفي كتابات أحاد هاعام نفس الفكرة حين يعتبر أن ــ القومية اليهودية ــ تختلف عن غيرها بأنها لا تعبر عن نفسها في السعي نحو السيطرة والتسلط وانما في خدمة مثال أعلى أخلاقي . وهو يعتبر أن الحركات القومية غير اليهودية نابعة من القوة العادية ، بينما لا تحترم القومية اليهودية الا قوة الروح . ليت هاعام عاش أكثر من عمره بسنوات كي يتحقق من صحة أقواله ... ولكن لا بأس . سنلجأ الى مؤرخ يهودي كي يخبرنا فيما اذا كان قيام اسرائيل قد تحقق بفعل القوة المادية أم القوة الروحية التي يحبها هاعام . فيقول ــ هانز كوهن : ان المشكلة اليهودية ليست الا جزءا من المشكلة الانسانية . ان الصهاينة لم يكونوا قادرين على فهم ، ذلك لانهم اعتنقوا مفهوم هرتزل حول وجود عالم أكيد معاد ومضاد للسامية ، بحيث لم يعد بمستطاع اليهود فيه الا أن يلجأوا الى صياغة قومية عدوانية غير مهادنة . وان ذلك هو الذي حال دون قيام اليهود بتطوير علاقات تعاونية انسانية مع العرب الفلسطينيين ــ . ولهذا يعتقد كوهن بأن الصهيونية لم تكن مجرد ابتعاد عن التقليد الليبرالي . ولكنها أيضا تعبير عن نفي اليهود في اطار تاريخ يسعى لطلاق نفسه من النظم الاخلاقية لليهودية (١٣) . ولكن الامر يتعدى العدوانية القومية ــ ليشمل بعدا آخر يتمثل في التنكر للوجود القومي للاخرين ، أي بالتحديد للشعب الفلسطيني . وهو تنكر صريح يعبر عنه القادة الاسرائيليون بين الحين والاخر .

وحول هذا الموضوع يقول الدكتور آرثر هرتزبرغ اليهودي ، منتقدا هؤلاء القادة بشدة : ــ « ان القادة السياسيين لاسرائيل قد أعادوا القول مرارا بأنه لا يوجد ، ولم يكن يوجد أبدا ، شعب عربي فلسطيني ... والعيب في هذه الحجة هي أنها تتجاهل حقائق التاريخ والحاضر معا . فالقادة الاسرائيليون يعرفون أن كل القوميات الحديثة ، بما فيها قوميتهم ، قد ظهرت حديثا نسبيا ، وليس قبل القرن التاسع عشر في أوروبا ،وفيما بعد في اسيا وافريقيا . ان انكار وجود وعي قومي عربي فلسطيني الان ، لانه لم يكن موجودا عام ١٩١٧ هو وهم . ذلك ان خلق دولة اسرائيل ، ومن ثم مشكلة اللاجئين . قد فتح حقبة جديدة من تاريخ عرب فلسطين . فلقد ظهر وعي قومي وقيادة ثورية شابة في الحقب العديدة المنصرمة ، فلماذا اذن يحاول الاسرائيليون انكار الحقيقة الساطعة ؟ » (١٤) .

ليست الاجابة على ذلك بالامر العسير . ايمكن تعليل ذلك بغير القول ان هذا اللباس العرقي الشوفيني لما يسمى بـــ ـــ القومية اليهودية ـــ ينسج خيوطه من ايديولوجية كولونيالية ، سلاحها البطش والارهاب والابادة شـــبه الجماعية المتدرجة للفلسطينيين ، كـــي تجيز لنفسها ولشعبها البقاء والتميز والتفوق ؟ الم تكن النازية والفاشية نتيجة منطقية لمناخ الايديولوجيات القومية المتعصبة والمنغلقة في المانيا وايطاليا ؟؟

ثالثا : استعداء العرب ونكران حقوقهم

وهو قرار ناتج بالضرورة عن القرار السابق .ان لا اعترف بوجودك اصلا ، يعني ان لا ارى لك حقوقا . ويعالج الدكتور اسعد رزوق هذه المسالة فيقول بأن الصهاينة يتعاملون مع العرب بـــ عقلية المنفى ـــ . والخطر الذي تنطوي عليه هذه ، يتجسد من خلال نظرتها الى حقوق الذين يسعون لانتزاع سيادتهم منهم . ويتخيل المنفيون ان استئصال شعورهم بالنفـــي لا يتـــم الا بالانتقام له ممن تنحصر صلتهم بالمنفى اليهودي ، في واقع كونهم سكان البلاد التي يطمح اليهود بالاستيلاء عليها واحتلالها . ويضيف رزوق مستطردا ، غير ان محاولة الخروج من وراء جدران ـــ الغيتو التقليدي ـــ القديم تصبح اسيرة عقلية المنفى فتشيد لنفسها ـــ الغيتو الجديد ـــ بعد ان تنجح في اغتصاب حقوق اهالي البلاد والاستيلاء على مقدراتها . وهي بذلك تفضح عجزها عن تخطي العقلية التي استحوذت عليها (١٥) .

واذا كان هذا باختصار هو الخط الفكري الذي يحكم نظرة اسرائيل الى الحقوق والمصالح العربية ، والفلسطينية منها بشكل خاص ، فما هو الخط ـــ البراغماتي ـــ لذلك ؟ يرى قادة اسرائيل ان هناك ثلاث اوضاع رئيسية تسمح لها بالاستمرار الى ما لا نهاية في تجاهل الحقوق والمصالح العربية دون أن يلحقها اي ضرر جدي . (١٦)

ا ـــ على المستوى الاسرائيلي :

١ ـــ ان اسرائيل مقتنعة بأن العقل العربي معاد جدا لها ولليهود كافة وان الطريق الوحيد للتعامل مع العرب يكون من خلال القوة . وهذا يقود بدوره الى ثلاث نتائج : يجب استخدام القوة على الدوام ، يجب عدم تقديم اية تنازلات ، من غير المجدي التفاوض مع العرب لتحســـين صورة اسرائيل أمام العالم ولهذا ، قرر صانعو السياسة الاسرائيلية المحافظة على حالة اللاسلم واللاحرب اعتمادا على هذه الفرضيات. وهي حالة يكفل استمرارها امران : الاول الردع الاســـرائيلي ، والثاني الدعم الامريكي غير المحدود لاسرائيل .

٢ ــ ان اسرائيل مقتنعة بقدرتها على احتواء ابناء الاراضي المحتلة واقتلاع ميولهم الوطنية واضعاف مشاعرهم المعادية لها .

٣ ــ ان اسرائيل مقتنعة بأن لا خطر حقيقي يهددها من جانب الكفاح المسلح الفلسطيني ، لان استراتيجيتها الثورية اصطدمت بالاستراتيجيات الاقليمية لدول المواجهة العربية .

ب ــ على المستوى العربي :

١ ــ ان الانظمة العربية تنظر للقاومة الفلسطينية على انها جسم سياسي حامل للمشاكل والهموم كما انها عنصر غير مرغوب فيه بسبب دورها في دفع حركة اليسار الى الامام ، وبسبب دورها التحريضي بين الشعوب العربية .

٢ ــ ان مصر ، كغيرها من الدول العربية ، تعاني من صراعات داخلية واقليمية ، وهي واقعة في فخ التناقض بين آمال التحرير والمصادر المالية المحدودة .

٣ ــ ان دول النفط العربية غير قادرة على استخدام النفط ضد اسرائيل او الضغط على الدول المساندة لها .

جـ ــ على المستوى الدولي :

١ ــ ان القوتين الاعظم تفضلان الهدوء والاستقرار في المنطقة .

٢ ــ ان الولايات المتحدة مقتنعة بأن ــ اسرائيل قوية ــ هي الاداة المناسبة لحفظ الاستقرار في منطقة غير مستقرة .

٣ ــ ان الولايات المتحدة تسعى لالغاء الوجود الفلسطيني المسلح بغية اعادة ترتيب أوضاع المنطقة. فهي لا تكره الفلسطينيين لفلسطينيتهم، بل لدورهم المحرض والقادر على توتير المنطقة . واستئصال المقاومة يعني : التوصل الى بحيرة امريكية هادئة في الشرق الاوسط ، التوصل الى حل أمريكي للصراع العربي ــ الاسرائيلي ، وخلق ــ حكومات ثوابت ــ في المنطقة لضمان استتباب الهدوء فيها .

وبعد ، فانه على الرغم مما يتضمنه هذا التصور الاسرائيلي للوهلة الاولى من تماسك وحقائق ، الا أنه بامكاننا أن نقدم بعض الاعتراض على صحة فرضياته :

اولا : ان أي فرضية او حقيقة في وقت ما ، قد تنقلب الى عكسها في وقت آخر من الناحية المبدئيـــة الصـــرفة .

ثانيا : ان اي فرضية تنشأ على اساس الواقع السكوني المستديم لا تلبث ان تسقط أمام حركة القوى المادية والمعنوية الجدلية ، وهي ان لم تعترف بهذه الحركة فانها تتحول الى حتمية ، الامـــر الذي لا يمكن تصوره في الواقع الاجتماعي ـــ السياسي المتغير .

ثالثا : ان اسرائيل ، مهما وصلت الى درجة من القوة او التأييد الخارجي ، لن تستطيع أن تعيش الى ما لا نهاية محاطة بهذا الجو المشحون من العداء والكراهية العربية ضدها ، ازاء استمرارها في التنكر للوجود العربي والحقوق والمصالح العربية .

اننا بهذا الصدد ، لا بد أن نثمن مجهودات بعض القوى السياســـية المنظمة الديمقراطية والتقدمية ، الى جانب بعض الرموز الفكرية في اسرائيل ، التي تناوىء السياسة الاسرائيلية في الاتجاهات الثلاثة السابقة ، وتعمل من اجل ايضاح الحق العربي الفلسطيني وذلك على الرغم من اختلافنا مع هؤلاء في التصور الاستراتيجي لحل الصراع العربي ـــ الاسرائيلي ، ولوجود اسرائيل أصلا . ونقتبس في هذا الصدد بعض الأسطر من رسالة مفتوحة وجههـــا البروفسور الاسرائيلي ـــ جاكوب تالمون ـــالى اسرائيل غاليلي ، حينما صرح بأنه لا يعترف بوجود شيء اسمه الشعب الفلسطيني .

يقول تالمون : ـــ . . في نظر العالم ، وفي نظري أيضا ، ان مســـــألة الاعتراف بالعرب الفلسطينيين كمجتمع له حق تقرير المصير ، هي المســـــألة الجوهرية الان . انها الاختبار الصعب الذي سيحدد فيما اذا كنا مستعدون للتسوية وللتصالح ، أم للتوسع ، وفيما اذا كنا مستعدون لاحترام حقوق الاخرين ، او تجاهلها . وهذا هو المعيار السليم للحكم على الطبيعة الديمقراطية والصفات الخلقية لدولتنا . (١٧) .

اسرائيل : مجتمع الجنرالات وحلم الاباطرة

من الامور التي تجعل اسرائيل تتميز عن غيرها من المجتمعات الدولية المعاصرة ، هو انها المجتمع الذي يكاد يكون وحيدا الذي قـــام على اكتـــاف المحاربين ـــ المستوطنين فالجيش الاسرائيلي، الذي كان مجموعة من تنظيمات ارهابية يهودية قبل عام ١٩٤٨ ، هو الذي خلق الدولة قبل ان تخلقه . ذلك ان ظاهرة العنف او القوة التي اصطبغت بها الحركة الصهيونية منذ بدايـــة

الاستيطان في فلسطين ، تجد جذورها في تقمصها لنفس الظاهرة التي ارتبطت بها الحركتان القوميتان في كل من المانيا وايطاليا في القرن المنصرم . والتمثل الصهيوني الكامل بهذين الانموذجين في القوة ، كأداة لتحقيق الوحدة القومية في اطار الوطن القومي نجم عن الاعتقاد بأن الصهيونية ، لكي تنجح في خلق الوطن القومي في فلسطين ، فان عليها أن تلجأ للعنف . والحقيقة ان القاريء لكتاب هرتزل يستطيع أن يجد أصداء للروح العسكرية الجرمانية التي عبر عنها الجنرال الالماني ـ فون مولتكه ـ (١٨) بقوله : ـ ان السلام الدائم مجرد حلم ، وحتى انه ليس حلما جميلا ، بينما تؤلف الحرب عنصرا جوهريا في تدبير الله للعالم ـ . أما على الصعيد العملي ، فاننا لسنا نجد أجدر من المدرسة العسكرية الاسرائيلية ، التي يعتبر جابوتنسكي أباها الروحي والعملي ، على استشفاف تلك الروح وترجمتها فعليا . لكن هذه المدرسة تفردت على سابقاتها بأمر متميز وخطير . فاذا كانت العسكرية الجرمانية قد وجدت تبريرها الايديولوجي في السعي نحو تثبيت الهوية القومية للامة الجرمانية ، بعد انحلال الامبراطورية ، فان العسكرية الاسرائيلية لم تكتف بالوصول الى تحقيق الوطن القومي بل تريد أن تتعدى ذلك لتكوين الامبراطورية الاسرائيلية من الفرات الى النيل . ومنذ أن قامت اسرائيل الى الان ، لعب الجنرالات دورا مهيمنا في رسم وتسيير شؤون المؤسسة السياسية ، كيف لا وهم الذين قد أوجدوها أصلا ؟ وصحيح ان دول العالم الثالث شهدت في معظمها نماذج عديدة من جنوح العسكريين للتدخل في الحياة السياسية ولم يكن الامر يتعدى ظاهرة جديدة ، تتمثل في بروز الجيش أحيانا كأداة لمجرد التغيير الاجتماعي في الداخل . ولكن الامر في اسرائيل يختلف عن ذلك جذريا لان التغيير الذي يبتغيه الجنرالات موجه للخارج ، أي للاقاليم المحتلة من ـ اريتز يسرائيل ـ . . ومن الناحية السيكولوجية المحضة فان ـ عسكرة السياسة ـ بالكامل في اسرائيل ، وتوجيهها باستمرار خارج الحدود الاقليمية للدولة ، تعطي للجنرالات ذلك الشعور العظيم بالزهو ، الذي نلمسه كثيرا ، وبشهوة مفرطة للتمثل بأحلام الفاتحين الاباطرة . ولربما يكون ذلك هو الذي يجعل للحياة العسكرية بالنسبة للجنرالات في اسرائيل مذاقا خاصا (٢٠) . كيف لا وهم الذين كانوا أول من يجني ثمار الشهرة في كل الحروب التي قادوها ضد العرب وخرجوا فيها منتصرين ؟ وعندما خيل للبعض ان ـ الروح العسكرية ـ الاسرائيلية قد أصيبت بنكسة موجعة اثر حرب تشرين ، وثارت الزوبعة في اسرائيل حول المطالبة بتحديد المسؤولية عن ـ التقصير ـ فان تلك الروح سرعان ما دبت فيها الحياة لتبعث في شكل جديد أكثر غطرسة . ذلك ان النصر العربي الجزئي اعتبر ثمرة لاخطاء فنية في القيادة الاسرائيلية . أما عن الضجة حول التقصير

فلم تكن اكثر من عملية ـ تصفية حسابات ـ بين الجنرالات ـ ضمن عملية التنافس الحاد للوصول الى المراكز العسكرية الحساسة . ومما قد يكون له مغزى ان نشبه عودة الروح العسكرية لاسرائيل الى أوجها المعتاد بعد نكستها المحدودة عام ١٩٧٣ ، وتوقيع اتفاقيات فك الارتباط ، بنفس عودة الروح العسكرية العدوانية الى المانيا بعد هزيمتها في الحرب الكونيـة الاولـى ، واضطرارها لتوقيع اتفاقيات الصلح مع الحلفاء ١٩١٩ . وكما ترافقت عملية ظهور العسكرية الالمانية من جديد بعد الحرب بعملية انزلاق سياسـي خطـر الى اليمين انتهى بالنازية ، فان عودة الروح العسكرية من جديد الى اسرائيل بعد حرب تشرين ، قد ترافقت مع انزلاق آخر مشابه الى اليمين ، تمثل في وصول الارهابيين من حيروت الى السـلطة .

ولا بد لنا أن ننوه في هذا الصدد ، الى حقيقة ان العالم الغربي أو الامريكي قد يخطىء كثيرا ان هو اعتقد بأن هذا الانتقال في السلطة في اسرائيل الى ـ الاكثر تطرفا ـ هو نتيجة عادية وطبيعية للديمقراطية البرلمانية في المفهـوم الليبرالي الغربي . انها في راينا شيئا يتعدى ذلك ويختلف عنه . الم يكن وصول النازيين الى السلطة نتيجة لما ظن انه ديمقراطية برلمانية في المانيا ؟؟

يقول البروفسور الاسرائيلي ـ جاكوب تالمان : ـ ان البعد التراجيدي لاسرائيل يكمن في حقيقة انها العقيدة الرسولية المنتصرة التي عليها أن تترجم عمليا في الحرب والقدرة ، وان ترى انجازاتها وانتصاراتها كعلامـة بارزة لصلابة وتفوق افكارها . والمقاومة التي يبديها خصومها تزيد حبهـا للقوة اشتعالا وتجعل من سعيها نحو القوة في حد ذاتها . (٢١) .

والحقيقة ان ما يسميه تالمان بحق ـ العقيدة الرسولية المنتصرة ـ تجد سندها المادي في ثلاث مصادر رئيسية :

الاول : القوى الذاتية لشعب ودولة اسرائيل ، ولا سيما في مجال الامكانيات والقدرات العسكرية التي اخذت تتنامى تدريجيا مع تطور صناعـة الاسلحة المختلفة محليا ، بما في ذلك القدرة على انتاج السـلاح النووي (٢٢) . وليس من شك أن تسريع صناعة الاسلحة المختلفة محليا قد ساعد على خلق طبقة راسمالية صناعية عسكرية تلعب بدورها دورا في دفع الروح العسكرية العدوانية الى الامام ، وكشف أطماع جديدة للقيادة السياسية ـ العسكرية كلما تنامـت تلـك القدرات (٢٣) ، انها نفس الطبقة التي تشكلت بشـكل بارز في الولايات المتحدة اثناء حرب فيتنام ، وكانت عاملا في تصعيد التدخل الامريكي في الهند الصينية قاطبة .

الثاني : ويتمثل في الدعم العسكري الامريكي الكامل لاسـرائيل تحت كـل الظروف . ولم يحصل في التاريخ المعاصر للعلاقات الدولية أن حظيت دولة حليفة بدعم عسكري مطلق من الدولة الاكبر كما تحظى اسرائيل الان من جانب الولايات المتحدة . بل ان الامر لا يتوقف عند هذا الحد فحسب . ان ما شهدناه من تدخل اسرائيلي مباشر أو غير مباشر ، عن طريق ـ اللوبي ـ الصهيوني في الكونغرس ، لمنع عقد صفقة الطائرات من طراز ـ أف ١٥ ـ الى دولة عربية هي السعودية ليمثل نموذجا فريدا على قدرة دولة صغرى لا لمجرد تأمين كافة طلباتها من الاسلحة من جانب الدولة العظمى ، بل لمنعها ايضا من بيع اسلحة لطرف ثالث . وقد تزول دهشتنا لو لم تكن السعودية تعتبر من جانب الولايات المتحدة حليفا لا يمكن الاستغناء عنه .

الثالث : ويتمثل بالامكانات المالية الوفيرة لليهودية العالمية ، والتي تمكن اسرائيل من تغطية تكاليف مشترياتها من الاسلحة . واذا كانت تلك هي الدرجة التي وصلت اليها تلك ـ الروح ـ وتلك ـ الطاقات ـ فلا بد أن تجد متنفسا لتفجيرها خارج الحدود الاقليمية لاسرائيل . فلعبة الحرب ليست تسلية غير مكلفة يتلهى بها العسكريون ، ان لم تكن مرتبطة بأطماع ومصالح بعيدة .

ان الفكر السياسي الاستراتيجي الاسرائيلي ، وعبر التجارب القاسية السابقة ، يعطينا الدليل العملي على توجه حقيقي نحو خلق ـ امبراطورية اسرائيلية ـ فعلية ، وهو توجه ناجم عن القناعة بانه لا يمكن القبول بواقع جغرافي ـ ديموغرافي ثابت لاسرائيل ، التي تعتبر نفسها التجسيد الحقيقي والكامل للامة اليهودية ، اي انها تعتبر نفسها ـ المركز ـ الروحي والثقافي والسياسي لهذه ـ الامة ـ . وينجم عن ذلك ثلاث نتائج هامة :ـ

الاول : ان اسرائيل هي ـ الوطن الام ـ لمجموع اليهود . ولذا فان يهود الدياسبورا هم مواطنين غير أصليين في البلاد التي يعيشون فيها ، من زاوية ان بقائهم خارج اسرائيل ، ليس لانهم يرغبون العيش فيها بل لان بقائهم في الخارج هو بسبب المولد والنشأة وارتباطات العمل . ولكن هذا لن يشغل الحكومات الاسرائيلية عن مواصلة الهدف التاريخي لجمع شتات يهود العالم في دولة كبرى واحدة بقدر المستطاع وبهذا المعنى ، فان الفواصل بين يهود اسرائيل ويهود العالم ، سواء كانت سياسية أو اقليمية ، هي وهمية ، وعلى كل حال ، فان الجسور بين يهود ـ الداخل ـ ويهود ـ الخارج ـ ،

ان جاز التعبير تكون عبر تنمية الثقافة اليهودية المشتركة بينهم كما يقول ناحوم غولدمان . وهكذا فان حرب ١٩٦٧ مثلا ، لم تكن في حقيقتها لذرائع أمنية فحسب ، بل ومن أجل زيادة تلاحم الدياسبورا بـ ـ الوطن الام ـ وتكثيف دعمها له . ولاجل زيادة الهجـرة والدعم المالي لاسرائيل فانه أعيد تأسيس ـ الوكالة اليهودية ـ في حزيران عام ١٩٧١ . وعندما عقد المؤتمر الصهيوني الثامـن والعشرين في كانون ثاني ١٩٧٢ ، فان الوفد الاسرائيلي للمؤتمر تقدم بمشروع قرار يدعو لطرد زعماء المنظمة الصهيونيـة الذيـن لا يهاجرون الى اسرائيل في غضون سنتين من تاريخ عقد المؤتمر (١) ومع أن مشروع القرار لم يوافق عليه بسبب احتجاج وفد يهـود امريكيا ـ هداسا ـ عليه ، وخروجهم من قاعة المؤتمر الا انه يعطينا مؤشرا على توجهات قادة اسرائيل في هذا الشأن .

الثاني : ان اسرائيل لا بد وأن تتوسع جغرافيا بالضرورة اذا ما اريد لها أن تستوعب عددا كبيرا من يهود العالم . وهذا التوسع يحدث عـلى مراحل ،لان عملية تجميع اليهود هي ـ عملية تاريخية طويلة كما يقول بن غوريون . وهذا التوسع على اية حال ، ليس عملية غير شرعية تتم على حساب الاخرين ، لطالما انها ليست اكثر من مجرد ـ استرجاع ـ لارض ايتز يسرائيل المغتصبة كما يردد بيغن وزمرته باستمرار ويحاولوا اقناع العالم به . ومهما تكن الحقيقة مرة ، فانه لا بد من الاعتراف بأن الحلم الصهيوني الهرتزلي بدأ يتحقق : ها هي فلسطين بالكامل ، والجولان وسيناء وجنوب لبنان تصبح تقريبا مزروعة بالمهاجرين والمستوطنات في كل مكان .

الثالث : ان ـ أورشليم هي ، بهذا المعنى ، العاصمة الامبراطورية ليهـود اسرائيل والدياسبورا معا ، وهي المركز الذي تتخذ منه القرارات في كل ما يتعلق بحاضر ومستقبل اليهود ـ اينما ـ كانوا . وبما ان اسرائيل هي التجسيد الكامل للمثال الصهيوني ، فانه لا يسمح ولا يعترف بوجود اي مدارس او اتجاهات فكرية او سياسية داخل الحركة الصهيونية ، بخلاف ما تقرره ـ الحكومة الامبراطورية ـ . وبهذا المعنى أيضا ، فان حكومة اسرائيل تتميز وتتفرد على غيرها من حكومات العالم بكونها الحكومة الوحيدة التي تشكل مؤسسة أيديولوجية ـ سياسية ـ عسكرية محكمة الاتساق ، التي لهـا سلطة فرض قوانينها على مواطنين خارج الحدود الاقليمية للدولة ، اي لتشمل بشكل أو بآخر يهود العالم قاطبـة .

وبعد ، اذا كانت هذه هي النوايا وهذه التوجهات والحقائق او ما يقترب منها على الاقل ، فان التساؤل الهام الذي يجب أن يطرح بالضرورة هو : اين هذه ـــ الحركة الاسرائيلية ـــ من ـــ حركة التاريخ ـــ والى اي درجة يمكن أن يحصل التماثل بين الرؤيا والقصد ؟ هذا ما سنعالجه في العنوان التالي .

اسرائيل : اسطورة العظمة المحالة

عند الحديث عن مستقبل اسرائيل ووجودها في المنطقة . يبرز عادة في العالم العربي اتجاهان : الاتجاه الاول يمكن تسميته بـــ ـــ الواقعي ـــ الذي يعبر عن نفسه في الاعتقاد بأن ثمة واقعا سياسيا ـــ اجتماعيا لا بد من الاعتراف به ، بل والتعامل معه ، ويتمثل في قيام اسرائيل منذ ثلاثين سنة بالتحديد . ويجد هذا الاتجاه تبريره البراغماتي ـــ الذرائعي في القول بانه ، شئنا أم أبينا ، فان العالم أجمع ، قد أقر بوجود هذا الواقع ، وهو ليس مستعدا ، من الناحية الادبية ، على الاقل ، للقبول بازالته . زد على ذلك ، ان تجارب الحـــروب الاربعة الماضية ، اثبتت عمليا أن ليس بوسع العالم العربي أن يغير عسكريا من هذا الواقع ، أو يحدث شرخا جديا فيه . وأخيرا فان اسرائيل بقيامها في خلق ـــ الحقائق الجديدة ـــ في الاراضي التي احتلتها منذ حرب حزيران ١٩٦٧ ، تزيد من صحة الاعتقاد بأن كيانا من هذا النوع لا يمكن أن يسمح ، الا بمعجزة ، عملية تدميرية . والنتيجة المنطقية لهذه الحقائق ، هو أن يعترف العالم العربي بوجود اسرائيل ، شريطة أن تتخلى عن مطالبها التوسعية . ذلك ان استمرار الرفض السلبي العربي لهذا الكيان سيكون نتيجة معروفة سلفا : مزيدا من التوسع والاستيطان اليهودي في الاراضي العربية . وربما يكـــون العـــرب الواقعين تحت الاحتلال مباشرة هم الاكثر تأثرا بهذا الاتجاه .

الاتجاه الثاني ، ويمكن تسميته بـــ ـــ التاريخي ـــ الذي يعبر عن نفسه في الاعتقاد بأنه من الانهزامية والاستسلام للواقع ان نحاكم مستقبل اسرائيل بغير رؤية تاريخية عميقة وشاملة ، تتجاوز المرحلة التاريخية الواحدة .

انني أميل للاخذ بالاتجاه الثاني ، وذلك على الرغم من اعترافي بأن القبول بأحد الاتجاهين هو مر . فالقبول بالاتجاه الاول يعني القضاء على كل طموحاتنا ومطالبنا القومية المشروعة في أراضينا العربية ، ونكران تضحيات أجيالنا ، واحناء هاماتنا أمام خوذات الفاتحين . والقبول بالاتجاه الثاني يعني التعامي عن جملة المعاناة اليومية لاولئك الذين يعانون الاحتلال او ـــ ظل ـــ الاحتلال ، والقفز فوق الواقع المعاش . ولكن ما يخفف أكثر من مرارة الموقف الثاني جملة حقائق لا يمكن نكرانها :

اولا : ان القبول بوجود اسرائيل والتعامل معها بأي شكل ، لا يعني ابدا نهاية المطامع الاسرائيلية والمعاناة العربية . انهما ينتقلان من مجـــرد شكل لاخر ، ومن مرحلة لاخرى . ومهما تلبست اسرائيل لبوس السلام ، فلسوف يبقى ان السلام الذي تبتغيه هو ـــ السلم الروماني ـــ كما يسميه ارنولد توينبي ، اي ذلك السلام الذي يعـــني بسط سيطرتها الكاملة على المنطقة وعدم القبول بأي اطراف اقوى فيها .

ثانيا : ان التحولات الاجتماعية الكبرى التي عرفتها البشرية ودفعتها للامام ، كانت تتم عبر صيرورة تاريخية طويلة ، لا تخلو من الشظف والمعاناة . واذا كنا نعترف بأن ازالة الكيان الصهيونـــي ـــ الاستيطانـــي ـــ العنصري من فلسطين يحتاج لطاقات وجهود اكثر من جيل ، يمكن بعدها القول بأن هذا الكيان محكوم بالفناء لانه متطفل على المنطقة . وهذا بنفس الوقت ، لا يجب ان يدفعنا للركون ابدا لمقولات تبشيرية ، او الاستسلام الكسول لرؤى حتمية ، دون التأكيد على دور العوامل الذاتية الفاعلة ، والتي بدونها يكون اللجوء الى الرؤى التاريخيـــة المجردة ليس الا محاولة للهروب .

ثالثا : ان حركة التاريخ المعاصرة تسير ، ومنذ انتصار حركات التقـــدم الاجتماعي وحركات التحرر الوطني في العالم ، باتجاه تقدمي . ان عصرنا هو عصر انهيار الاستعمار ، والاستعمار الجديد والعنصرية . ومن هنا فان اسرائيل لا يمكن ان تنجو ، على المدى البعيد ، من حركة التاريـــــخ هـــذه .

رابعا : ان التاريخ القديم والحديث يقدمان لنا عدة نمـــاذج من الدول التي اتسمت بنزعة عسكريتارية صرفة ، وبنماذج امبراطورية متعددة ، وكلنا يعلم ان كل هذه النماذج قد انهارت . لم تكن الدولة الاسبرطية هي اولها ، ولن تكون الامبراطورية القيصرية هي آخرها . قد يكون الابداع والمحاكاة امران ملائمان احيانا ، لكن عملية التمثل الالي لهما من قبل اسرائيل ، في عصر يختلف جذريا عن العصور التي انجبت ـــ سبارطة ـــ او ـــ روما ـــ امر محكوم بالسقوط لا محالة .

في نيسان عام ١٩٧٠ ، وفي ظل عمليات ـــ الانتقام الشامل ـــ التي كانت تشنها القوات والطائرات الاسرائيلية ضد الاهداف المدنية والعسكرية المصرية، ابان حرب الاستنزاف ، ظهرت مقالة للزعيم الصهيوني ناحـــوم غولدمـــان قال فيهـــــا :ـــ

ـ انه بعد خمسين سنة من النشاط الصهيوني ، بدأت تتولد لديه شكوك حول ما اذا كان اقامة دولة اسرائيل ، كما هي عليه اليوم ، يعتبر الانجاز الكامل للفكرة الصهيونية . واضاف غولدمان ـ ان اسرائيل قد فشلت على الاخص في الاعتراف بخطورة واهمية المشكلة العربية ، واان نزعتها العسكرية قد زادت من خطورة مستقبل العلاقات الاسرائيلية ـ اليهودية . ويؤكد غولدمان في نفس المقالة على ـ ان الانتصارات التي حققتها اسرائيل للان ، لم تنجح في تقريب اي حل للصراع العربي ـ الاسرائيلي ، والانتصارات وحدها يكون لها معنى فقط ، اذا ادت الى الاستقرار والسلام ـ . وفي تحليل نقدي عميق للاتجاهات العدوانية في اسرائيل ، يضيف غولدمان قائلا بانه : ـ مع أن النجاح في أرض المعارك قد حظي باعجاب العالم ، فان هذا ليس أمرا فريدا ، ولا مقصورا على الشعب اليهودي . كما ان شعوبا أخرى وحضارات لم تحظ بالاعجاب ولا بالتذكر في التاريخ نظرا لانجازاتها العسكرية (٢٤) .

والحقيقة ان صلافة المؤسسة السياسية ـ العسكرية الاسرائيلية ، وطموحها المكشوف لبناء ـ اسطورة عظمة ـ عصرية ، لم تسترع انتباه زعيم صهيوني بارز مثل غولدمان فحسب ، بل ان رموزا عديدة في الاوساط المثقفة والجامعية في اسرائيل ، قد حذرت من خطورة هذا الاتجاه ، ليس على الشعوب العربية فحسب ، بل وعلى شعب اسرائيل ودولته أيضا . ها هو المؤرخ الاسرائيلي المعروف جاكوب تالمون يحذر من ـ اسطورة العظمة ـ تلك بعبارات ، تدل على استقراء حقيقي وموضوعي للتاريخ . يقول تالمون في مقالة كتبها عام ١٩٦٩ : ـ ان أولئك الذين يعتقدون بأن القوة هي الرد على كل مشكلة ، يعيشون ليومهم فقط ويتجاهلون المستقبل . فبالنسبة لهم ، فان النجاح الكاسح للقوة هو الكلمة الاخيرة في التاريخ . . انهم يتصفون بـ انا ـ تمنعهم من فهم عقلية خصومهم ، أو تحسس ما يجول في خاطرهم . . . وهكذا فان القومية المتطرفة تتشكل وهي مشبعة باحتقار عميق للشعوب الاخرى ، وروادها مدفوعون بالاعتقاد بأن القوة ستحل كل مشكلة ، وانهم عقدوا ميثاقا مع القدرة العلية موجه نحو جعلهم لا يقهرون أبدا وأقوياء بلا حدود ـ (٢٥) .

وفي تحليل مسهب للمشاكل الاخلاقية لاسرائيل يقول تالمون :ـ انه رغم حاجة اسرائيل للامن العسكري ، فانه من الخطأ الاعتقاد بأن استمرار الحرب، هو وسيلة لتحقيق المصالح القومية والتوسع الاقليمي والانقياد في اتجاه أحادي نحو القوة ونحو نزعة المغامرة العسكرية ، التي تهدف للحصول على الحد الاقصى ـ ، ولا ينسى تالمون في هذا الصدد ، أن يذكر المسؤولين الاسرائيليين بـ ـ ان الذي يعيش بالسيف سيموت به في النهاية ـ (٢٦) .

وبالفعل فان ــ التطور الحاسم ــ منذ عام ١٩٧٢ في المنطقة ، كما يقول جون كمشة ، ان اسرائيل قد أصبحت هي العامل العسكري الرئيسي في الشرق الاوسط ، وانه باستطاعتها أن تضرب وقتما تشاء ، ولا تحتاج في ذلك لاكثر من التأييد الاميركي الضمني ، وان اسرائيل قادرة على السيطرة على المنطقة للثلاثين أو الاربعين سنة المقبلة . وعن هذه الوضعية من القوة المطلقة ، يقول الجنرال الاحتياطي الاسرائيلي ــ ماتيتياهو بيليد ــ المعروف باتجاهه المهادن نحو العرب ، ان الاساطير الثلاثة التي قادت اسرائيل الى شبه كارثة يوم الغفران عام ١٩٧٣ ، هي اسطورة ان العرب جبناء وضعفاء ، ولن يكون باستطاعتهم أبدا القيام بهجوم ، واسطورة أنه في حال قيام العرب بهجوم ، وهو احتمال ضعيف ، فان التفوق الجوي الاسرائيلي سيضمن لها تحقيق النصر الاكيد . أما الاسطورة الاخيرة ولعلها الاخطر ، فقد كانت تقوم على اعتقاد ممزوج بقدر كبير من الغطرسة التي تبدت في كل المجالات ، بأننا نستطيع ان نفرض على الفلسطينيين وعلى العالم اجمع الوضع القائم الاقليمي الى ما لا نهاية . ولكن ، الم يضطر الجنرال حاييم بارليف الى الاعتراف بفشل هذه السياسة ، حينما قال في مقابلة مع الراديو الاسرائيلي ، ردا على سؤال حول اسباب نشوب الحرب بأن المصريين لم يعد بامكانهم أن يتحملوا الوضع القائم ؟ وها هي الغطرسة العسكرية تبعث من جديد في جنوب لبنان . ذلك ان الاحداث ــ الصغيرة ــ كحرب تشرين ، لا يمكن أن تحدث أي شرخ في بناء الاسطورة ولا اي تحويل هام في المسار التاريخي المقدر لها .

وبعد ، فاننا نعترف في هذا الصدد ايضا ، بأن أصواتا جريئة قد ارتفعت في اسرائيل وفي الدياسبورا تحذر من مغبة التفاؤل في حلم العظمة هذا ، تماما كما كان الامر في بداية الاستيطان الصهيوني في فلسطين ، سواء كانت هذه الاصوات امتدادا روحيا لحركة الاستنارة اليهودية ، أو صرخة تحذير مبكرة للقادة الاسرائيليين قبل فوات الاوان . ولكن هذه الاصوات ، بما لها من قيمة لا زالت قليلة خافتة ، ولا بد لكافة الرموز والقوى الديمقراطية والتقدمية اليهودية ، في داخل اسرائيل وخارجها ، من أن تضاعف من جهودها لكشف الحقيقة ، والتقدم بأفكار جديدة تصبو لايجاد حل ديمقراطي حقيقي للصراع العربي ــ الاسرائيلي ، ينبذ الوضع القائم كليا في اسرائيل ، بكل ابعاده العدوانية ، التوسعية العنصرية وبناء عالم جديد يخلو من اساطير العظمة المحالة .

الهوامش

(١) اميل توما : **جذور القضية الفلسطينية نقلا عن** « بن هلبرن » اليهودي في كتابه فكرة الدولة اليهوديـــة ص ١٨

(٢) **المصـــدر السابـــق**

(٣) ثيودور هرتزل « **الدولة اليهودية** » ص ٧٩

(٤) Alan Taylor : Zionist Mind. P. L. O. Center of Palestine Studies, Beirut 1977. P. 47.

(٥) **اميل توما** : المصدر الصابق ص ٧٦

(٦) **ثيودور هرتزل** : **اليوميات** ، الجزء الاول ص ٣٨

(٧) الدكتور اسعد رزوق : **اسرائيل وحقوق الانسان العربي** ص ٧٨ مركز الابحاث الفلسطيني ، بيروت ١٩٦٨ .

(٨) Georges Tamarin : The Israeli Dilemma, Essays on a Warfare State. Roterdam University Press, P. 9. 1973.

(٩) خالد تشطيني : **المصدر السابق** . ص ١٦ وما بعدها .

(١٠) الدكتور فيصل السامر . مسألة الجنس اليهودي ـــ **مجلة مركز الدراسات الفلسطينية** ص ١١٩ بغـــداد .

(١١) الدكتور فيصل السامر **المصدر السابق**

(١٢) صادق جلال العظم ، **المصدر السابق ص ١١٨**

(١٣) Hans Kohn : Zion and Jewish National Idea. London, P. 53

(١٤) Arthur Hertzberg : "Palestine, the Logic Partition Today" Columbia Forum. Fall 1970. P. 17.

(١٥) الدكتور اسعد رزوق . **اسرائيل وحقوق الشعب الفلسطيني** ـــ مركز الابحاث ـــمنظمـــة التحرير الفلسطينية ـــ بيروت ١٩٦٨ ص ١٠٣

(١٦) طارق عبد الحكيم : **استراتيجية التسوية الامريكية** ، بيروت . ١٩٧٦

(١٧) Jacob Talmono : Jewish Liberation Journal, New York, November December 1969, P. 4.

(١٨) فون مولتكه ، هو قائد الجيوش الالمانية ضد فرنسا اثناء حروب ابراهيم باشا في الاناضول ، ١٨٧٠ — ١٨٧١ .

(١٩) Alan Taylor. Zionist Mind. Op. Cit.,

(٢٠) عن دور المؤسسة العسكرية في توجيه السياسات الاسرائيلية انظر :
Amos Per Imutter : Military and Politics in Israel Nation -Building and Role Expansion. France Cass and Co. LTD. London 1969 and, Amos Perlmutter; Politics and the Military in Israel 1977 France Cass Co. LTD., London, 1978.

(٢١) Jacob Talmon : "Is Force Indeed an Answer of Everything?" Dispersion and Unity Jerusalem, No. 17, 18, 1973 P. 15.

(٢٢) عن هذا الموضوع انظر نشرة **مركز الدراسات الفلسطينية** العدد أيار ١٩٧٨

(٢٣) عن صناعة الاسلحة في اسرائيل انظر **المصدر السابق** ذاته من ص ٢٦٤ الى ص ٢٧٣ .

(٢٤) Nahom Goldman : "The Future of Israel" Foreign Affairs, April, 1970, P. 443.

(٢٥) Jacob Talmon : "Is Force an Answer of Everything?" Op. cit.

(٢٦) Jacob Talmon : "Is Force Indeed an Answer of Everything?"

■ ■ ■

اذ تطمح هذه المجلة في أن تكون منبرا بارزا من منابر طلبة وأساتذة العلوم الاجتماعية ، ترحّب بكل ما يردها من دراسات وملاحظات واقتراحات عملية . انها تفتح صفحاتها للانتقاد الهادف وتقدّمه على الاطراء غير الهادف ، وتدعو قرّائها في الوقت ذاته الى مناقشة ما تتضمنه من أبحاث ومواضيع ومراجعات وتقارير خاصة بحيث يكون في مقدورها افراد باب جديد خاص بذلك في الأعداد القادمة .